بالرجولة. اذ هم يبحثون عن هذه الأشياء ولكنّهم ضيعوها حين ضيعوا فلسطين ولن يصلوا اليها بسعيهم الى الكويت، بل انهم بهذا يزدادون بعداً عنها. انّ هؤلاء الأبطال يخوضون تجربة البحث عن قيمة أصيلة ضيّعوها في خضّم هذا العالم المتدهور «عالم التجارة والتهريب». ان فلسطين هي القيمة الأصيلة، وهم واعون ذلك ولكنهم لا يسعون للوصول اليها، ولذلك فان مسيرتهم محكوم عليها بالفشل.

يبحث أبو الخيزران عن المال، عن المزيد من المال، ولكنّه يعلم أن أكداساً منه لا يمكن أن ترجع له رجولته المفقودة ولا حلمه بالمرأة. المرأة التي ترمز الى كل ما هو جميل الى السعادة والرضى عن النفس، الى الاكتمال، لذلك فان تجربته تكشف لنا عن تدهور هذا العالم وفقدانه لقيمه الأصيلة.

ويبحث سعيد س. عن ابنه في اسرائيل،وهو يعلم أنه لا يمكن أن يجده لأنّ الأبواب «يجب أن تفتح من جهة واحدة»، ولكنه يواصل التجربة ويصل الى النهاية الفظيعة، وهي أنّ ابنه أصبح عدوه. كما يبحث الأعمى والأطرش عن البصر والسمع عند عبد العاطي ويكتشفان الوهم المعلّق على الشجرة يزيف أحلام المقهورين. أمّا حامد فيبحث عن الصفاء والطهر عند أمّه التي يمكن أن تكون قد تزوجت هي الأخرى. ان هذه التجارب محكوم عليها بالفشل، وهي بذلك تساعد على فهم الواقع ومعرفة اشكاليته، انّها عالم مصغّر يفضح سمات العالم الكبير: وواضح أنّ غسان كنفاني اعتمد في هذه الروايات نمط التجربة التي تبني بناءاً تصاعدياً يفضح الواقع، ويؤول الى كشف القناع عن استحالة الوصول الى الغاية المقصودة وينتهي بفشل التجربة، وهذه السيرورة هي التي تكوّن الحبكة في هذه الروايات.

أمّا الروايات الباقية، والتي سميتها بالروايات الملحّمية، فهي لا تكوّن عالماً مغلقاً ولا تقوم على تجربة فردية، وانما هي روايات تجعل البطل أكثر التحاماً بالحياة الجماعية؛ وذلك أنّه، على خلاف الروايات السابقة، لا يبطن سمات الحياة ولا يتقمّصها في تجربته بل هي معطاة له يتعامل معها كعامل خارجي واضح المعالم، منفصل عنه، والبطل لا يغامر مغامرة باطنية وليست له مشاكل وعي أو تصادم مع قيم العالم، انّه يفهم العالم ويحاول السيطرة عليه وهو يعرف طريقه. أمّا العقبات التي تعترضه، فهي عقبات خارجية لا تزلزل كيانه وله الحصانة النفسية الكافية لمجابهتها والانتصار عليها؛ وهو واع بما يريد وقد انتهج السبيل الموصلة، لذلك لا تحدث المغامرات فيه تمزّقاً نفسياً و«العاشق» يمشي على النّار و«أم سعد» تبعث بابنها للموت دون أن يتألم أي منهما، لأن في ذلك تحقيقاً لذاتيهما. انّ المغامرة لا تدفع بالبطل الى النهاية الفاشلة بل ترفعه الى النصر المحتوم، لأنّ تجربته ليست تجربة فردية بل هي تجسيد لالتحام مصير الفرد بالمجموعة؛ وهذا الشكل لا يخلق من حياة البطل عالماً مغلقاً بل يجعله يعيش الحياة العامة التي يقدمّها له المجتمع المحيط به.

تعيش «أم سعد» في المخيّم وتمرّ بها مشاكل الحياة اليومية التي يمكن أن تمرّ بأي امرأة في مخيّم من المخيمات، وتواجهها المواجهة المنبثقة من الوعي العام المنتشر في المخيمات، فيبدو سلوكها وكأنّه السلوك العادي لانسان تلك الفترة والذي يستمد قوتّه من ذلك الانفتاح على الواقع. أمّا «العاشق»، فيلتحم بالحياة الجماعية عبر التاريخ وعبر